فجر الهدى والإيمان

صحابيات حول الرسول صلى الله عليه وسلم

زينبُ الكبرى

بنتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم

١٣

إعداد : زهير مصطفى يازجي

مراجعة : يوسف عساني

جميع الحقوق محفوظة لدار القلم العربي بحلب ولايجوز إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه
أو طباعته ونسخه أو تسجيله إلا بإذن مكتوب من الناشر .

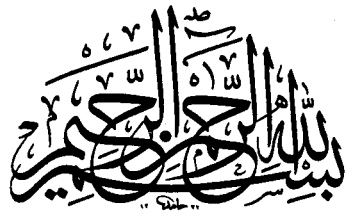

مَنْشُورَاتُ
دَارِ ٱلقَلَمِ ٱلعَرَبِيِّ بِحَلَب

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

عنوان الدار

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

شارع هدى الشعراوي

هاتف ٢١٣١٢٩ - ص.ب: ٧٨ - تلكس: ٣٣١٦٩٢ ريفكو

زينب الكبرى

ولادة زينب

كانت زينب رضي الله عنها ثمرة الزواج الأولى بين النبي عليه الصلاة والسلام ، وخديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، وماكادت خديجة تحمل في بطنها بضعةً من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم حتى طارت فرحا ، واستبشرت خيرا ، فهي ستلد ولدا من سيّد ولد آدم .

وجاءها المخاض ... وبكت الطفلة زينب ، وبكى معها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم فرحا وابتهاجا ، فها هو قد أصبح أباً ، وها هي الطفلة بين يديه يحنو عليها ويرمقها بنظرات الحبِّ ، ويضُّمها إلى صدره الحنون ، شاكرا الله عز وجل على مامَنَّ عليه .

وكانت زينب رضي الله عنها تشبه أمها الطاهرة خديجة ولكن لم يكن هذا مايشغل فكر أبيها عليه الصلاة والسلام ، بل كان جُلَّ مايشغله هو : هذه الطفلة الصغيرة . إذ راح عليه الصلاة والسلام يتأملها بخشوع ووجل ، يفكر في قدرة الله عز وجل في صنيعه في خلقه .

زواجها

وتعيش زينب مع والديها الكريمين في بيت تحفُّه الملائكة وترعاه ، وتكبر رويدا رويدا إلى أن تبلغ ريعان الصِّبا والشباب ، وتبدو كصفحة بيضاء رائقة من حسنها وجمالها ، فيتقدم لخطبتها ابنُ خالتها(١) أبو العاص ابن الربيع ، سليل الحسب الرفيع ، فهو من وجهاء قريش ، بل من أكثرهم شرفاً ومالاً ، ويلتقي نسبه من جهة أبيه مع النبي ، صلى الله عليه وسلم ، كذلك يلتقي نسبه مع أمها خديجة ، وكان أبو العاص إضافة لذلك معروفا بين قومه بالصدق والأمانة حتى لقّبه قومُهُ : بالأمين.

كلُّ هذا أهَّلَهُ لأن يكون زوجا لبنت خير الناس ، صلوات الله عليه، ومماشجّع خديجة على تمنّيه زوجا لابنتها .

ووافق رسول الله ، صلى الله عليه وسلم عندما جاء أبو العاص خاطبا فهو نِعم الصهر الكفء .

ولكنه كعادته عليه الصلاة والسلام في تزويج بناته ، تريث(٢) قليلا في قبوله ، ودخل على ابنته زينب يستشيرها في أمر خطبتها من أبي العاص .

---

(١) هالة بنت خويلد .

(٢) تمهل وانتظر .

وأطرقت زينبُ رأسها حياءً وخفراً[1] ، ولم تبح بكلمة واحدة ، بل سكتت راضية مطمئنة ، وخرج النبي ، صلى الله عليه وسلم يزفُّ البشرى إلى ابن خالتها وأمها خديجة ، فقد وافقت زينب بسكوتها ، وتجهزت العروس ، وخرجت ترنو إليها أنظار أبيها وأمها حزينة فرحة ، حزينة لفراقها وفرحة لزواجها . وخفق قلب خديجة حزنا وألما ، وأسبلت عيناها بالدموع ، ورفعت رأسها إلى الباري عز وجل ، تدعو لهما وتسأله أن يرزقهما الذرّيةَ الصالحةَ .

في بيت زوجها

وعاش الزوجان السعيدان حياةً ملؤها الحبُّ والودُّ ، فكانت زينبُ مثالَ الزوجة التقية الصالحة ، وكان أبو العاص مثال الزوج المخلص الودود ، ولم يكن ينغّصُ عليهما حياتهما سوى ارتحال أبي العاص بين الفينة والأخرى في تجارة له ، وشدَّ ماكانت تشتاق إليه ، حتى إذا مادبَّ الشوق في قلبه وهو بعيدٌ عنها ، قال فيها شعراً ليخففَ من عذاباته :

---

(١) خجلا .

ذكرْتُ زينبَ لمّا وركَتْ أَرما[1]

فقلْتُ سُقْياً لشخصٍ يسكن الحَرَمَا

بنتُ الأمينِ جزاها اللهُ صالحةً

وكلُّ بعلٍ[2] سيثني بالذي عَلِمَا

ويرزق الله الأبوين الكريمين ولدين : عليٌّ بن أبي العاص الذي توفي وهو صغير ، وأُمامة بنت أبي العاص ، والتي كانت زوجةً لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه بعد وفاةِ فاطمة رضي الله عنها .

﴿ نزول الوحي ﴾

وتتلاحق الأيام متتالية ، والنبيُ ، صلى الله عليه وسلم يخرج كعادته إلى غارِ حِراءَ متعبداً ، متفكراً بآلاء الله وآياته ، مبتعدا عن مكة التي يملؤها الكفرُ وعبادة الأوثان ، خالدا إلى الهدوء والسكينة ، حيث لايجد مايعّكر صَفْوه وتأملَهُ ، وإذ برسول ربه جبريل يأتي ليبلغه رسالة ربِّه إليه ، رسالة التوحيد ويأمره بأن يقف في وجه الكفر والطغيان .

وكم كان الحِمْلُ عليه ثقيلا ، فهبَّ راجعا إلى بيته وهو يرتجف ، واستقبلته زوجته الطاهرة خديجة ، فهدَّأتْ من روعِهِ وصدّقتْهُ وآمنت

---

(١) جلست بأرض عطشى لانبات فيها .

(٢) زَوْجٍ .

بدعوته هي وبناتها ، ووقفت إلى جانبه تشدُّ من أزره وتسانده في دعوته قائلةً له :

– الله يرعانا ياأبا القاسم ، أبشر ياابن عم ، واثْبُت والله لايخزيك أبداً. إنَّك لتصلُ الرَحِمَ(١) ، وتصدُقُ الحديثَ ، وتؤدي الأمانةَ ، وتحملُ الكلَّ(٢) ، وتقري(٣) الضيفَ ، وتعينُ على نوائبِ الحق .

ويصيب زينبَ الذهولُ عندما سمعت النبأَ ، وتفيق على صوت أختها فاطمة رضي الله عنها قائلةً :

– ألا يسعِدُكِ ياأختاه ، أنكِ بنتُ نبي هذه الأمة ؟ .

فتجيبها زينب ، والخوف على أبيها يسكن فؤادَها :

– بلى ياأختاه ، وأيُّ شرفٍ عظيم هذا الذي حظينا به ، ولكن أما سمعت ماقاله ورَقَةُ بن نوفل :

– لَيُكَذَبَنَّ أبي ، ولَيُؤذَيَنَّ ، ولَيُخرجَنَّ ، ولَيُقاتَلنَّ .

﴿ بداية الفراق ﴾

ويعود أبو العاص من بعض أسفاره ليجد زوجته زينب مشتاقة إليه، وليضمها إلى صدره بعد طول غياب ، وليحدثها بما تناقله الناس من

---

(١) الأقارب .

(٢) مَنْ لاولد له ولاوالد .

(٣) تُطعِم .

مبعث نبي جديد يدعو إلى دينٍ يخالف دينَ آبائهم وأجدادهم ، وتحدثه زينب عن النبأ العظيم وعن اتباعها الدين الجديد هي وأمها وأخواتها ويتجهمُ وجهُ أبي العاص ، ويقول غاضباً :

– أصبِئْتِ(١) يازينبُ ؟ .

فقالت : وماذا تريدُ ؟ أأُكذّبُ أبي ، وهو الصادقُ الأمين .

وخيّم سكون حزين بين الزوجين ، وكم كانت تتمنى زينب أن ينير الله قلب زوجها ، ويدخُلَ في الإسلام ، ورغم كلِّ محاولاتها وتوسلاتها له ، إلا أنَّ زوجها أصمَّ أذنيه ، وبات في حيرةٍ من أمره ، أيدخُلُ الدينَ الجديد ؟ فيخالف آباءه وأجداده ، أم يبقى على كفره ، فيخسر حبيبته أمَّ أولاده ، وماكان منه إلا أن قال :

– والله يازينب ما أبوك بكاذبٍ ، وماعهدناه كاذباً ، ولكن هم أهلي وعشيرتي . أترضينَ أن يُقالَ بأني خذلْتُ قومي إرضاءً لكِ؟ .

﴿ أذى المشركين ﴾

ويشتد أذى المشركين لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ومن اتبعه من أصحابه ، وعندما لم يجد المشركون فائدة ترجى في ردِّ المسلمين عن دينهم القويم ، فرضوا الحصارَ على الرسول ، صلوات الله عليه

---

(١) الصبأ : الخروج عن دين الآباء والأجداد إلى دين جديد .

وأصحابه ، الذي دام ثلاث سنين لايأتيهم من الطعام إلا النـذرَ اليسـير ، وفتك بهم الجوعُ والعطشُ ، حتى كانوا يأكلون أوراق الشـجر ، وكـل شيءٍ رطْبٍ .

وكانت الفاجعة الأشد إيلامـا مـوت زوجتـه خديجـة بنـت خويلـد وعمه أبي طالب ، وسار نبي ا لله ، صلـى ا لله عليـه وسـلم إلى بيتـه يجرُّ رجليه حزيناً ، مطرق الرأس ، تكـاد الدمـوع تنفلـت مـن عينيـه ، وقـد غابت عنه أم المؤمنين ، الزوجة الصالحة ، التقية ، الورعة ، وعمه دِرْعـهُ الذي يحميه من أذى المشركين الذي أخذ يشتدُّ .

فما كان من الرسول الكريم ، صلوات ا لله عليه إلا أن قرر الهجرة إلى المدينة المنورة برفقة الصديق أبا بكر ... وتبعه من تبعـه مـن المؤمنـين وكذلك بناته فاطمة وأم كلثوم ورُقّية .

أسر زوجها

وبقيت زينب وحيدة في مكة ، تلتفت حولها فلا تجد من يواسيها ، فتلجأ إلى قبر أمها ، تناجيها وتروي الثرى من دموعها.

وتنشِبُ معركة بدرٍ بين المسلمين والمشركين ، ويخرج أبـو العـاص مع الكفار ليحارب المسلمين ، فوقع أسيرا في أيديهم . فجزعـت زينـب عند سماع نبأ أسرِهِ وحزنت عليه ، ورغم موقفه العدائي من رسول ا لله، صلى ا لله عليه وسلم ، وهو الذي لم يكن منه إلا كلَّ الخير والمعـروف ،

هبّتْ لافتدائِه ، فبعثت بمالٍ وبقلادةٍ لها ، كانت خديجة رضي الله عنها أدخلتها بها على أبي العاص .

فلما رآها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم وكان يعرفها، رقَّ قلبه وقال :

– "إنْ رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا ".

قالوا : سمعاً وطاعةً يارسول الله .

وأخذ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم وعداً من أبي العاص أن يردَّ إليه ابنته إليه ، فقد فرقَّ الإسلام بينهما .

لحاقها بأبيها

وبعث عليه الصلاة والسلام زيدَ بن حارثة ليأتي بها من مكة وقال له :

– " كُنْ على مقربةٍ من مكة حتى تمرَّ بك زينب ، فتصحبها وتأتيني بها " .

وعاد أبو العاص إلى مكةَ واستقبله المشركون بفرحٍ وغبطةٍ ، ولكنه خفَّ الخطا إلى زينب ، فقد رقَّ إليها رقةً شديدةً . وكاد يعانقها لولا أنه تذكر الوعد الذي قطعه على نفسه ، وابتعد عنها ابتعادَ الأمِّ عن ابنها المسافر وقال لها بحسرة :

– لقد فرق الإسلام بيني وبينك يازينب .

فقالت زينب وهي تغالب دمعتها :

– سمعا وطاعة لله تعالى ورسوله .

وتجهزت زينب للرحيل ، فأخذها كنانةُ بن الربيع أخو زوجها ، وقدّم لها بعيراً وحَمَلَ كِنانته(١) ، وخرج بها نهاراً على مرأى من أهل قريش .

ولكن المشركين غاظَهم أن تخرج بنتُ قاتلِ آبائهم وأولادهم من بينهم بهذه الصورة المكشوفة ، وخافوا إن هم سكتوا أن يقال بأن القرشيين قد رضوا بالذلِّ والمهانة ، ولحِق بها رجل يسمى : هُبار بن الأسود ، وآخر يدعى : نافع بن عبد القيس ، وقوم آخرون .

واقترب هُبارُ منها وأخافها بالرمح فغدت تنزف دماً ، وقد كانت حاملا ، ووقف كنانة بن الربيع وقد استلَّ سيفه ليذودَ(٢) عنها وقال :

– وا لله لإن اقترب منها رجل ، وضعت السيف في عنقه .

ودنا أبو سفيان بن حرب منه وقال :

– أيها الرجل أبعد سيفك عنا حتى نكلمك ، ومضى أبو سفيان قائلا :

– أيها الرجل إنّا لانريد أن نحتجز زينب ، ولانريد منها ثأرا ، ولكنك أخذتها هكذا جهارا أمام الملأ ، فماذا يظن الناس بنا ، فارجع بها حتى

---

(١) الكِنانة : مايوضع بها السهام .

(٢) ليذودَ : ليدافع .

يهدأ الناس ثم خذها في غَلَسِ(١) الليل ، فألحقها بأبيها .

واستجاب كنانة لتوسلِ أبي سفيان حفاظا على حياة زوجة أخيه ، وبعد أيام استردت زينب عافيتها فانطلقت مع كنانة إلى حيث أبيها ، ورأت هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان بن حرب الذين ذهبوا للقاء زينب فقالت لهم :

أفي السِلْمِ أعيارٌ(٢) جفاءً وغِلظةً

وفي الحربِ أشباهَ النساءِ العوارِكِ(٣)

ووصل كنانة بن الربيع بهودجِ زينب إلى المكان المتفق عليه، حيث كان ينتظرها رسولان من النبي ، صلى الله عليه وسلم في منطقة ذي طوى ، فأسلمهم إياها وهو يقول :

عجِبْتُ لهُبارٍ وأوباشِ قومه

يريدون إخفاري(٤) ببنت محمد

ولست أبالي ماحييتُ عديدهم

وماستجمعت قبضا يدي بالمهند(٥)

---

(١) ظلام الليل .

(٢) أعيار : الرجل الذي يخلي نفسه وهواها لايردعها ولايزجرها .

(٣) العوارك : النساء الحائضات .

(٤) إخفاري : نقض عهدي .

(٥) المهند : السيف .

وانطلق الرجلان بزينب إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وخرج لاستقبال ابنته التي عادت إلى دار الإسلام ، بعد أن عانت ماعانت في دار الشرك ، فأصابه كَدَرٌ وهمٌ بعد ماسمع من فِعلة هبار بن الأسود وترويعه لها . فأمر بإهدار دمه وبعثَ بسرية قائلا لقائدها :

– " إن لقيت هبار بن الأسود ونافع بن عبد قيس ، فأحرقهما " .

ثم إن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم قال له في الغد :

– "إن لقيتهما فاقتلهما ، فإنه لاينبغي لأحد أن يعذِّب بعذاب الله".

وتمرُّ سنوات ستٌ ، وزينب تعيش في حمى أبيها رسول الله، صلى الله عليه وسلم ، و لم يدخل اليأس إلى قلبها من أن زوجها سوف يعود إليها مؤمنا مسلما .

﴿ إسلام زوجها ﴾

وتشاء إرادة الله عز وجل أن ينشرح صدر أبي العاص للإسلام ، فيهاجر إلى المدينة طالبا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ليعلن إسلامه ويلتقي به قائلا :

– أشهد أن لاإله إلا الله وأشهد أنك رسول الله .

وتَقَرُّ عينا رسول الله بإسلام أبي العاص ، ويفرح لفرح ابنته زينب، فها هو الحبيب قد عاد بعد غيابٍ طويل .

عودتها لزوجها

وتسرع زينب عندما سمعت نبأ إسلامه لاستقبال زوجها ودموعها تسبقها ، دموعُ الفرح والغبطة ، فها هو أبو علي وأمامة بين يديها ، ها هو الزوج الحبيب قد أقبل ونور الإيمان يشعُّ من وجهه ، وتقول له :

– مرحبا بك ياابن خالتي ، مرحبا بك أبا علي وأمامة .

ويعيد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم زينب إلى أبي العاص لتهنأ بزوجها وبأولادها ، ويعود شمل الأسرة ليلتقي من جديد بعد فراقٍ دام ستَّ سنين ، تحت سقف واحد ودين واحد وإله واحد .

ويجد رسول الله ، صلى الله عليه في أمامةَ بنتِ زينبَ الحبيبة ما يخفف حزنه ، فكان يأنس بها ، ويهشَّ لها ، وكان عليه الصلاة والسلام يحملها على عاتقه ويصلي بها .

وكان صلى الله عليه وسلم يؤثرها على أحبِّ الناس إليه ، فقد أُهدِيَتْ إليهِ قلادةٌ فقال :

– " لأدفَعها إلى أحبِّ أهلي إليّ " .

فقالت النساء :

– " ذهب بها إلى ابنةِ أبي قحافة(١) .

فما كان من رسول ا لله ، صلى ا لله عليه وسلم إلا أن دعا أمامة بنت زينب فأعلقَ القلادة في عنقها .

وكان حبه ، عليه الصلاة والسلام لأمامة من حُبه لابنته زينب رضي ا لله عنها ، حتى أنه كان يبدّل أسماء كثير من النساء باسم زينب.

قالت زينب بنت أبي سلمة ، ربيبة رسول ا لله :

– كان اسمي بَرَّة ، فسماني رسول ا لله ، صلى ا لله عليه وسلم : زينب وكذلك سمى بَرَّة بنت جحش زوجة رسول ا لله باسم زينب .

﴿ الفراق الأبدي ﴾

ومرت سنة واحدة على لقاء الزوجين ، ليعود الفراق بينهما، ولكنه الفراق الأبدي الذي لالقاءَ بعده ، فقد ماتت زينب ، بعد عانت من مرضٍ لازمها منذ أن نزفت دماً في الصحراء .

ماتت وهي قريرةُ العين ، مسلمة روحها الطاهرة إلى الباري عز وجل في السنة الثامنة للهجرة النبوية . وبكى زوجها أبو العاص بكاءً مراً، إلى أن جاء أبوها صلى ا لله عليه وسلم والحزن يعصر قلبه وقال :

---

(١) هو أبو بكر ، ويَعْنونَ بابنته عائشةَ رضي ا لله عنها .

- " اغسلنها وِتراً ثلاثا أو خمسا ، واجعلن في الخامسة كافورا أو شيئا من كافور " .

وقال عليه الصلاة والسلام :

- " ابدؤوا بميامِنها ، ومواضع الوضوء " .

ونزل في قبرها صلوات الله عليه ، وقال بعد أن صَعدَ :

- " كنت ذكرت زينب وضعفَها ، فسألت الله تعالى أن يخفف عنها ضيق القبر ففعل .. " .